

تاريخ القبول: 2025/03/11

تاريخ الإرسال: 2024/03/07

تاريخ النشر: 2025/04/30

صورة المكان والبطولة الثورية الجزائرية في أدبيات الاستشراق الأوروبي

The image of the place and the Algerian revolutionary heroism in European Orientalism literature

وردة سلطاني¹جامعة باتنة 1، الجزائر، ouarda.soltani@univ-batna.dz

الملخص:

شكّلت الجزائر قوة بحرية وحضورا سياسيا لافتا في منطقة البحر المتوسط بدءا من القرن السابع عشر وصولا إلى القرن لتاسع عشر للميلاد، في هذه الفترة انتضحت نزعة الكراهية والعداء ضدها، وظهرت معالم الحقد في مواقف ومؤلفات المؤرخين والرحالة الأوروبيين، وأصبحت فترة ما قبل الاحتلال وما بعدها حقبة عداء ووعيد صُبَّ في تلك الكتب، ومال أصحابها إلى السبِّ والشتم واحتقار كل ما هو جزائري.

معظم هؤلاء المؤلفين زاروا الجزائر وأعجبوا بطبيعتها وأماكنها خاصة الصحراء، وترجموا إعجابهم بالمكان في إبداعاتهم مغفلين تسليط الضوء على بطولات شعبها ومآثره. من هذا المنطلق تسعى هذه الدراسة لتعري بعض كتابات المتعصبين من المستشرقين، كما تجسّد النظرة الكولونيالية العدائية ضد الثورة الجزائرية، وذلك من خلال نموذج من الأدب القصصي الذي انعكست فيه هذه الرؤية الاستعمارية المتعالية الحاقدة على الفرد الجزائري، والمتمثل في قصة "البطل" للكاتب الألماني أندريه كامينسكي، فكيف صوّر الكاتب بطل الثورة الجزائرية في قصّته؟

وكيف تجسدت معالم النظرة الكولونيالية تجاه الجزائريين وإرادتهم الصلبة في الانعتاق من نير الاستعمار؟

الكلمات المفتاحية: الثورة الجزائرية، نزعة الكراهية، الرؤية الاستعمارية، أدبيات الأوروبيين، الرحالة.

Abstract:

Algeria formed a naval power and political position in the Mediterranean starting from the seventeenth to the nineteenth century. During this period, fear and hostility of Algeria grew, and the tendency of hatred against it became clear, with its features appearing in the positions of historians, writers, and travelers and in their writings. The period before and after the occupation became a period of hostility and threats and literature was no exception, as writers tended to curse, insult, and despise everything that was Algerian. Most European writers and travelers visited Algeria and admired its natural beauty, especially the desert, and expressed their admiration for the place, all without acknowledging the heroism of its people. From this colonial vision, the features of the story "The Hero" by "Andrei Kaminsky" become clear. How did the writer portray the hero of the Algerian revolution in his story?

The research paper aims to expose some of the writings of fanatical Orientalists, as they embody the aggressive colonialist view against the Algerian revolution

Keywords: Algerian revolution, hatred tendency, colonial vision, European literature, travelers.

المؤلف المرسل: وردة سلطاني OUARDA.SOLTANI@UNIV-BATNA.DZ

1. مقدمة:

تعد الجزائر العثمانية بقوة أسطولها الذي هيمن على حوض البحر المتوسط، والثورة التحريرية بكل قوتها وصمودها الذي حققت به النصر على الاستعمار الفرنسي، صورتان مشرقتان لشعب هذه الأرض المعطاء، تركتا أثرا بالغا

في فكر وانطباعات وكتابات معظم الرحالة والمؤرخين والكتاب الأوروبيين خاصة المتعصبين منهم؛ ففي فترة قوة الجزائر بأسطولها وهيمنتها العسكرية نمت العدائية والخوف من هذه القوة التي بدأت الدول الأوروبية تحسب لها ألف حساب، وقد راجت هذه الأفكار وظهرت إلى العلن في أوروبا قبيل الاحتلال في مواقف بعض المؤرخين والجواسيس والرحالة والكتاب الذين جسدوها في مؤلفاتهم، واستمرت نظرة الاحتقار لكل ما هو جزائري، وظل الأمر على حاله حتى في فترة الاحتلال. من خلال هذا الطرح حددنا مشكلة البحث في العنوان التالي: "صورة المكان والبطولة الثورية الجزائرية في أدبيات الاستشراق الأوروبي".

وقد اخترنا كعينة للبحث، قصة "البطل" للكاتب الألماني أندريه كامينسكي (1923-1991) الرحالة الذي زار الجزائر، والمتشبع بالأفكار الاستعمارية المتعصبة، فهو معجب أيما إعجاب بالصحراء الجزائرية، مستاء أيما استياء لحد الحط والازدراء من الثورة الجزائرية، التي حرمتهم الاستمتاع بجمال الأماكن الصحراوية. من هذه الرؤية الاستعمارية الحاقدة نتضح معالم قصة البطل، فكيف صور الأماكن الصحراوية؟ وكيف صور بطل الثورة الجزائرية من خلال هذه الأماكن؟ تأسيسا على ما سبق، تروم هذه الورقة البحثية تعرية كتابات بعض المستشرقين المتعصبين من خلال كتاباتهم عن الثورة الجزائرية.

2. الجهاز المفاهيمي للدراسة:

تتناول القصة موضوعين في آن يترجمهما موقف الكاتب الذي يهيم بجمال الصحراء الجزائرية، ويشيد بالاستعمار الفرنسي المتحضر (وفق منظوره) الذي تشع منه معالم الإنسانية المستمدة من دينهم المتسامح، ويأسف لخروج الاستعمار الفرنسي. وبالمقابل يصب جام غضبه وحقه على الثورة والثوار الجزائريين المسلمين.

في الحقيقة، هذه الأفكار التي تشبّع بها الكاتب تسرّبت إليه من محيطه، ومما كان سائدا في فترة الجزائر العثمانية يوم كانت الجزائر في أوج قوتها، إذ قهرت وأسرت كل من تسوّّل له نفسه عبور أراضيها دون موافقتها، وأخضعت الدول الكبرى في أوروبا وأمريكا، فكانت كلما ازدادت قوة ازداد الغرب تخوّفاً وسخطا وتتّبعاً لكل خطواتها دراسة وتحليلاً في مؤلفات المؤرخين والرحالة والكتّاب والقناصل والجواسيس، وقد شوّهت هذه الكتابات صورة الجزائر وتاريخها ونعنته بشتى الأوصاف الدنيئة، وقد نما معها السخط على الجزائر، «وأصبح العصر عصر عداة وحقد ووعيد صَبَّ في كتب الأدب والتاريخ وبُنّت السموم، ومال أصحابها إلى الشتم والازدراء والاستفزاز والاحتقار».¹ ووصف البلاد والعباد وحكامها بأحط الصفات. هذه هي الخلفية الثقافية التي تشبّع بها هذا الكاتب المتعصّب، الذي زار الجزائر المستقلة وقلبه يعتصر حقدا ليرجع إلى بلاده ويكتب هذه القصة ويبث فيها امتعاضه وسخطه من الثورة والثوار، وكل ما يمثلونه من قيم ومبادئ.

وعليه، تتأسس هذه الدراسة على موضوعين جوهريين: صورة المكان وصورة البطل في هذه المدونة، وهما مصطلحان لصيقان بالسرد القصصي والروائي، وقبل مباشرة الدراسة والتحليل، لابد من توضيح مفهوم ودلالة كل واحد منهما.

1.2 مفهوم البطل والبطولة:

"البطل" و"البطولة" مصطلحان متلازمان، والبطل في اللغة العربية هو «اسم من فعل (بَطَلَ) ويعني الشجاع الذي تبطل جراحاته فلا يكثرث لها، ولا تبطل نجاته. وقيل سمّي بطلا لأن الأشداء "يَبْطُلُون" عنده».²

أما في الاصطلاح: «هو الشخصية الرئيسية في حكاية أو ملحمة من النوع المعروف بالأدب البطولي... كما أنه القائد القوي الملهم الذي يستطيع تحديد مسار التاريخ»³، فهو شخصية محورية بارزة في أي عمل من الأعمال السردية الحكائية

على تنوعها، سواء ذات الطابع الشفهي أو المكتوب. والبطولة «مجموعة من قيم ومثل رفيعة في حياة العرب... والبطل من أعرق المفاهيم الأدبية؛ فقد شكّل أبرز وحدة بانية في الملاحم والأساطير والخرافات والحكايات الشعبية وغيرها».⁴

ومن مقاييس البطولة أن يتحلّى البطل بالشجاعة والصفات الأخلاقية الحميدة، ويحمل على عاتقه الدفاع عن مجتمعه أو أفراد عشيرته. ومن أشكاله البطل الثوري، فهو شخصية خرجت من عامة الناس، تدافع عن قيم إنسانية، تريد التغيير ودحض الاستعمار وأشكال الظلم. فهو يمثل شخصية البطل في القصة من منظورنا، أما من منظور الكاتب (كامينسكي) فهو بطل مضاد.

والبطل المضاد: «شخصية تمثل الدور الرئيسي في الرواية من دون أن تتمتع بالصفات الجسدية أو المعنوية المتفوقة التي تخلعها الرواية على بطلها عادة⁵، والكاتب يختار عمدا شخصية ذات مقاييس سلبية قصد التعبير عن رؤية معينة. وهذا ما نلاحظه في هذه القصة التي جعل فيها الكاتب البطل "حفيظ" موضعاً للازدراء، ووصفه بأوصاف خُلّقية وخُلّقية مقرزة، قصد الحط منه والنيل من قيمته كإنسان.

2.2 المكان والسرد:

إن إحساسنا بالوجود يكمن في إدراكنا للمكان ووعينا به وتحديد موقعنا فيه، «تلك هي نقطة البداية الحقيقية للفنون التشكيلية والأدبية الحديثة بدءاً من المسرحية والرواية»⁶، وقد تعايش الإنسان العربي مع المكان دون أن يعي ويدرك قيمته، وأول ما ظهر هذا الوعي بالمكان وإدراكه عندما استولى الغزاة الأوروبيون على الوطن، هنا استفاق العربي على أهمية المكان وقيّمته عندما ضاع منه. والمكان كما صوّره "غالب هلسا" في تقديمه لكتاب "جماليات المكان" لغاستون باشلار: «أن لفظ مكان مشتق من الفعل كان، أي الكينونة والوجود».⁷

3.2 أهمية المكان في السرد:

الفضاء هو الحيز المكاني في الرواية، وعادة ما يطلق عليه الفضاء الجغرافي، وهنا لا نتحدث عن المكان كشكل هندسي فارغ، بل المكان في تفاعله مع عناصر القصة التي تكسبه دلالة؛ أي يصبح مكانا حيا؛ لأن المكان ليست له قيمة إلا إذا حدث فيه شيء، أي استدعى وجود شخصيات وأحداث. والفضاء عنصر مهم ومكوّن أساسي من المكونات الروائية لا غنى عنه، مثله مثل الشخصية والحدث والزمن مع اقتضاء وجود سارد. «إن الفضاء في الرواية ليس في العمق سوى مجموعة من العلاقات الموجودة بين الأماكن والوسط والديكور، الذي تجري فيه الأحداث والشخصيات التي يستلزمها الحدث، أي الشخص الذي يحكي القصة والشخصيات المشاركة فيها».⁸ فالمكان يكون له حضور في إطار العلاقات التي يقيمها مع هذه العناصر المهمة ومن مجملها يتشكل المكون الحكائي.

والفضاء الحكائي يتكون من مجموع الأمكنة، التي تبرز في العمل الروائي؛ فالفضاء أشمل وأوسع من معنى المكان. فالمكان المحدد في العمل القصصي يتضح عند التوقفات الزمنية لسير الأحداث، لذا يقتزن بالوصف الذي يمثل الانقطاع الزمني (الوقفة)، أما الفضاء فنجد مستمرا بعد الانقطاعات حاضرا في السرد أي الزمن، وهذا ما أشار إليه "ميخائيل باختين" بتلازم علاقات الزمان والفضاء «علاقات الزمان تتكشف في المكان، والمكان يدرك ويقاس بالزمان، هذا التقاطع بين الأنساق وهذا الامتزاج بين العلاقات هو الذي يميز الزمان الفني».⁹

ففي الفضاء يقتزن الزمن بالمكان كما أن تعدد الأمكنة يوجد بشكل منظم في إطار الفضاء، وهذا الفضاء سواء كان حاضرا أو مستحضرا، واقعيا أو متخيلا، مرتبط بالشخصية والحدث والزمن، «بمعنى أن الفضاء موجود على امتداد الخط السردى، لأنه لا يغيب مطلقا حتى ولو كانت الرواية بلا أمكنة، الفضاء حاضر في

اللغة، في التركيب، في حركية الشخصيات، وفي الإيقاع الجمالي لبنية النص الروائي، وعندما نرفض أن نسميه، أن نحدده، أن نمحه هوية وأن نعبر عنه (لعجز في الإدراك أو رغبة في تحصين بناء نموذج نظري معين)، فإنه لا يتغيب، بل يظل كامنا هناك في الظل بانتظار لحظة إدراك ملائمة أو استجابة أكثر تعاطفا».¹⁰

فهذا الحضور المهيمن للفضاء داخل شبكة العلاقات أو التفاعلات مع الأحداث والزمن والشخصيات، هو الذي يعطي للعمل القصصي تماسكه وانسجامه. وتقديم الأمكنة يرتبط بتقديم الشخصيات، وعادة ما يكون المكان خاضعا للشخصية خادما لها ومن هنا لا يظهر إلا من خلال وجهة نظر الشخصية التي تعيش فيه وتخرقه، كما تتعدد أبعاد الفضاء من خلال المنظور الذي تتخذه الشخصية.

وفي القصة موضوع الدراسة، نلاحظ أن الشخصية تختفي وراء المكان، فيسلبها حرّيتها في الظهور وفق رؤية الكاتب السارد، بالمقابل يركّز على المكان الذي يحبّه، وعند إبرازه للمكان الديستوبي والسليبي والعدواني تتساوى الشخصية والمكان في الظهور، لذا ستنتم دراسة الشخصية من خلال المكان.

3. الصحراء والتمثيل الكولونيالي:

اهتم الرّحالة والأدباء الأوروبيون بالجزائر ابتداء من القرن الثامن عشر وازداد هوسهم بها في القرن التاسع عشر، وتنوّعت أهداف هذا الاهتمام ففي مراحله الأولى أخذ طابعا استعماريا كولونياليا، ولمّا تمّت السّيطرة على الجزائر وتمّ احتلالها، أصبح دعائيا لنقل صورة الجزائر إلى الفرنسيين والأوروبيين قصد تعميرها والهجرة إليها، وهناك أهداف أخرى غير سياسية، وأخرى غير معلنة.

يعد القرن التاسع عشر عصر الرحلات إلى الجزائر دون منازع، حيث وفد إليها العلماء والمستشرقون، والرحالة والرسامون والكتاب، الذين ساحوا في بقاعها واستكشفوا مدنها وصحاريها، وعاداتها وتقاليدها وثقافتها المتنوعة. وما يهمننا هنا هم

الكتاب الذين وثقوا هذا الإرث الثقافي في مؤلفاتهم، ونذكر من الكتاب الذين زاروا الجزائر على سبيل المثال؛ «ثيوفيل غوته»، «غوستاف فلوبير»، «الكسندر بيار، "جوردا دوماس"، "جي دي موباسان"، "أندريه جيد"، ونلاحظ أثر الجزائر في الأعمال السردية الفرنسية بشكل واضح في الأعمال القصصية للأديب "ألفونس دودي" في أعماله: "تاترين دي تارسكون" و"رسائل من طاحونتي" و"حكايات الإثنيين".¹¹

والى جانب الفرنسيين، نجد الكتاب الألمان الذين جسدوا في أعمالهم الأدبية الحياة الاجتماعية في الجزائر، كـ«هاينريش فون مالتسان» في روايتين وقصة مطولة تناولت طبيعة الجزائر وتقاليد سكانها؛ وهي: "مُدْحُ الحشيش في الجزائر" و"جواهر الباشا" و"الصف القبائلي"، ضمن كتابه "صور من التقاليد الجزائرية والتونسية".¹²

الملاحظ أن معظم الرحالة كان تركيزهم على المدن الشمالية مع بداية الاستعمار، وفي المرحلة التوسعية للاستعمار الفرنسي ظهر الجيل الثاني من الأدباء الرحالة الذين اهتموا بالصحراء الجزائرية؛ أمثال "هنري دوفيري" عام 1859، الذي حاول اختراق مجتمع الطوارق ومعرفة طريقة عيشهم وعاداتهم وتقاليدهم، ضمن كتابه "طوارق الشمال"، ثم الكاتب "أوجين فرومنتان" الأكثر تردداً على الجزائر، والذي سجل انطباعاته عن الجنوب الصحراوي في كتابه "صيف بالصحراء" عام 1857، كما قصد "ألفونس دودي" الصحراء من أجل التداوي من مرض السل.¹³

وقد اهتم "هانريش فون مالتسان" بالجنوب الصحراوي وسجل انطباعاته في رحلاته من تبسة إلى تقرت جنوباً، ومن العاصمة إلى الأغواط وعين ماضي جنوباً، سجل فيها العادات والتقاليد والأساطير والأشعار في المنطقة.¹⁴ وكانت بسكرة الدينية ذات الحظ الأوفر من الكتابات الرحلية؛ فقد ألّف حولها "غوستاف راش" كتابه "في اتجاهات واحات الزيبان في الصحراء الكبرى"، و"كتاب رحلات عبر الجزائر"، تناول فيه موضوعات متعددة، دينية، اجتماعية، سياسية... كما زار المدينة كل من

"فيليكس هاتفورد"، و "س. ه. ليدر"، و "هنري دوفالي"، و "جون هيرابيل"¹⁵، وخصّها "جيل لوكليرك" برحلته الموسومة: "من موكادور إلى بسكرة".¹⁶

وتختلف انطباعات الكتاب والرحالة عن الجزائر، فمنهم من أظهر ودّه وإعجابه بها، ومنهم من صدرت مواقفه من خلفيات وأحقاد استعمارية صليبية خاصة «بعض الألمان الذين أظهروا مشاعر العداء للجزائر، التي أهانت أوروبا لفترة طويلة... لذلك اتسمت كتاباتهم بالطابع الصليبي في بعض الأحيان، فقد أشفت فرنسا غليل بعضهم في الانتقام من الجزائريين».¹⁷ وانطلاقاً من هذا الموقف العدائي للجزائر ينطلق صاحب قصة "البطل" موضوع الدراسة.

4. المكان مسرحاً للأيديولوجيا في قصة "البطل":

1.4 ملخص القصة:

تبدأ أحداث قصة "البطل" للكاتب الألماني أندريه كامينسكي¹⁸ من نهايتها كاستراتيجية اختارها الكاتب ليعرض أحداثها، ثم يعود إلى الوراء عن طريق التذكّر والاسترجاع لسرد أحداث البطل حفيظ، حتى يصل إلى النقطة التي يصل فيها الزمن الحاضر الذي بدأ منه، في بنية تعرف بالبنية الحلزونية، حيث تكون البداية والنهاية مرتبطتان بالزمن الحاضر، وما بينهما زمن نفسي.

يعمل الراوي مستشاراً لأحمد ومصطفى، الأخير أراد أن ينتج فيلماً، فأشار عليهم أن يذهبوا إلى سوق مدينة وادي سوف التي رأى فيها وجوهاً لأشخاص يصلحون لأداء أدوار في هذا الفيلم. يبدأ السرد من دخول هؤلاء الثلاثة الصحراء، ويسهب الراوي في وصف الطبيعة الصحراوية والإعجاب بها. استغرقت الرحلة أياماً وقد نال منهم التعب وهم يسابقون الزمن للوصول في موعد سوق الخميس، فجأة توقفت بهم السيارة حيث غرقت عجلاتها في الرمل، فاضطروا للسير على الأقدام في

الصحراء الحارقة وهم في شهر رمضان بالنسبة لأحمد ومصطفى. حتى لاحت لهما من بعيد واحة "قمار" دخلوها قبيل آذان المغرب بقليل.

دخلوا المبنى للإفطار وللشهر فهو المكان الوحيد المتاح في المدينة، كان المبنى ملتصقا بالمسجد من الجهة الخلفية، وفي السهرة التقى الراوي بصاحب المبنى ويدعى حفيظ، لم يتعرف عليه للوهلة الأولى، ثم تذكر بأنه رآه عام 1959 في أحد المستشفيات عندما أصيب في ساقه إثر عملية فداية، ونقله الصليب الأحمر إلى أوروبا للعلاج، كان هذا المستشار من المعجبين به وبثورته، لكن يزول هذا الإعجاب عندما يعرف من حفيظ خبايا هذه البطولة، ويدرك أنها أعمال ضد الإنسانية، ضد أوروبا وفرنسا التي تقوم بالأعمال الإنسانية تجاههم. وتتقلب صورة حفيظ البطل عنده إلى صورة خنزير أحول وابن حرام، ويتساءل في استنكار: ما هذه البطولة التي يصبح صاحبها بعد الاستقلال صاحب مبنى؟

2.4. أدلجة المكان:

ينطلق الكاتب من فكر كولونيالي صليبي تكوّن لديه من خلال قراءاته لأعمال الرحالة المتعصبين، كما لا نعدم زيارة الكاتب للصحراء الجزائرية، فهو يبدع في تصوير الصحراء ولا يخفي إعجابه بها، وفي المقابل عندما يتعلق الأمر بالحديث عن الثورة والثوار، يبدي تعصبه والقدح فيهما، هذا ما نلاحظه في تعليقات الراوي الذي يطل بها بين الفينة والأخرى، ولا يدخر جهدا في بث سمومه والظعن في الثورة.

3.4. التقاطبات المكانية:¹⁹

ذكر الأثاث من لوازم الديكور له أهميته في تكوين المشهد وربط ذلك بالشخصيات حتى يجعل للفضاء معنى؛ «فوصف الأثاث والأغراض هو نوع من وصف الأشخاص الذي لا غنى عنه، فهناك أشياء لا يمكن أن يفهمها القارئ ويجسدها إلا إذا وضعنا أمام ناظره الديكور وتوابع العمل ولواحقه».²⁰

ينبني النص على الثنائيات الضدية التي تبرز الرؤية الإيديولوجية المتناقضة عند المستشار/الراوي، فاستراتيجية الفضاء النصي أو بنيته تقوم على زمنين ومكانين؛ حاضر ومستحضر عبر الذاكرة، وكل ما يحدث داخل هذا الفضاء أيديولوجيتان متباينتان متصارعتان تنتصر الحاضرة على المستحضرة، ينتصر الحاضر الاستعماري بكل قوته وحضارته على الماضي المجيد للثورة الجزائرية، الذي لم يحقق شيئا من الإنجازات وبقي في دائرة الفقر الذي تشهد عليه هذه الأمكنة.

وهنا نلاحظ بأن الراوي ينقل أحداث الثورة بأبطالها إلى فضاء الصحراء في مدينة قمار، عندما كان يستحضر صورة البطل حفيظ وهو في المستشفى الأوروبي «كان قلب الممرضة يخفق بحب المجاهدين، وكذلك كان قلبي أنا، كنا نريد أن ينتصر الجزائري على الفرنسي. كنا نريد ذلك ونؤمن به كل الإيمان. كانت أوهامنا وتصوراتنا عن ذلك تعمر رؤوسنا».²¹ أما صورته الآن عندما عرف حقائق بطولته مختلفة تماما، إذ انتصرت الأيديولوجيا الاستعمارية، فحفيظ بطل القصة الآن 1964 عبارة عن خنزير، وتصبح صورته الماضية عبارة عن وهم وخيال، يقول: «كان هذا حفيظ 1959، أما حفيظ عام 1964 صاحب مبغي الخنزير العجوز».²² يصبح الزمكانان حلم ويقظة، في إطار هذه الثنائية الضدية تتم مقارنة الأمكنة في القصة.

4.4 الأماكن المستحضرة عبر الذاكرة:

تتعلق جميعها بماضي الشخصيات الجزائرية الثلاثة البطل حفيظ وأصدقائه وبالثورة التحريرية في الفترة الاستعمارية عندما التقى بهم بالمستشفى الأوروبي، أما الأماكن الحاضرة فترتبط بالشخصيات نفسها، ولكن في فترة الاستقلال بمعية الراوي في المدينة الصحراوية قمار، ونلاحظ أن الرحلة العكسية تخدم أيديولوجيا الكاتب.

1.4.4 أوروبا مقابل الجزائر (صورة البطل بين أوروبا والصحراء الجزائرية):

المكان في أوروبا يحضر من خلال المستشفى، يقدمه الكاتب في إطار من العموم لا يتعرض إلى تفاصيل المدن ولواحقها، إنما نرى أوروبا من خلال المستشفى الذي يقع فيه حفيظ وأصدقاؤه الذين أصيبوا بالرصاص أثناء تنفيذهم عملية فدائية، يقول الراوي: «تذكرت شوارع مغطاة بالثلوج... على الجانب الآخر من البحر الأزرق كان ذلك في مستشفى يتألق نظافة، يتوفر على الكروم والخرسانة والمعطف الأبيض، كأنه في أوروبا بآتم معنى الكلمة. قادتني ممرضة فوق أرضية مغطاة ببساط، عبر ممرات معقمة تزووع منها رائحة الأثير والكلوروفورم. وكانت الممرضة لطيفة ملتزمة ذهبت بي إلى الرجال الذين يحظون بعنايتها القصوى، وكانت ترتعد خوفا عليهم... كانوا خمسة في غرفة واحدة وهم مجاهدون من الجزائر».²³

يبدو المكان الموصوف مكانا راقيا حسب المواصفات العالمية، والقائمين عليه ملائكة لا يخطئون، يستقبلون المجاهدين من الضفة الأخرى المعادية ويقومون بتطبييهم والسهر على راحتهم، هذا في مقابل المكان الموصوف في الجزائر وهي واحة قمار، تم التركيز في هذه الواحة على مكان واحد وكأن المدينة لا تشتمل إلا على هذا المكان الذي عدّه هدفًا رئيسًا، ارتبط بأحمد المحبّ للنساء في المبغى.

ثم يقدم وصفا دقيقا للمبغى، فيقول: «خلف المسجد كانت ثمة موسيقى تنطلق في نشاز من أحد الأقبية، طبل يدوي ومزمار، يصاحبها صوت فتاة، كان اليأس قد بلغ مني مبلغه... كان ذلك القبو مغارة للصوص، خانا لقطاع الطرق، مبغى صحراوي للطبقة الدنيا تفوح منه رائحة العرق والأعضاء التناسلية القذرة... كان هناك مصباح زيتي يشتعل والرجال جالسون في مكان نصف معتم... أقبل عليّ شيخ وأشار إلى مكان فوق الأرضية الطينية طبعًا، فجلست...».²⁴

لقد أمعن الكاتب في وصف المبغى فهو مكان ضيق معتم يفتقر لمواصفات المكان اللائق، يشبه مغارة مظلمة أرضيتها ترابية يجتمع فيها قطاع الطرق، تفوح

منه الروائح الكريهة، والملاحظ أن كل جزء من أجزاء الأثاث الموصوف في النص يحمل دلالة الفقر والتهميش، حتى الفضاء في حد ذاته يبدو مسلوب الحرية مقهوراً؛ فالفضاء وما يحمله من أشياء يترجم عن ذاته و«يلد السرد قبل أن تلده الأحداث الروائية».²⁵ وهذه مقارنة للمكانين في إطار أيديولوجيتين متصارعتين:

المكان في أوروبا	المكان في الصحراء الجزائرية
-مستشفى، لم يذكر المدينة.	-مبغى في مدينة قمار الصحراوية جنوب الجزائر.
-مبنى عال بالخرسانة توجد به أشجار الكروم، أرضيته مغطاة بالبلاط.	-عبارة عن قبو أو مغارة، أرضية من طين.
-توجد إنارة.	-معتم فيه مصباح زيتي.
-نظيفة، رائحة كلوروفورم.	-متسخ وقذر، روائح كريهة.
-ممرضة بمئزر أبيض.	-الفتاة البغي بلغ منها اليأس، صدرها عار، سروالها مثقوب.
-الصليب الأحمر هو من أحضر المجاهدين للمستشفى.	-الجهاد باسم الدين الإسلامي هو ما قتل الفرنسيين.

نتيجة المقارنة بين المكانين تقضي إلى فضاءين مختلفين، وإيديولوجيتين مختلفتين متصارعتين؛ سياسية وعقدية. المكان في أوروبا راقٍ يقدم الخدمات الإنسانية، الممرضون كالملائكة، يشتمل المكان على النظافة والإنارة البناء مشيد من الخرسانة، كما يقف الصليب الأحمر وراء الأعمال الإنسانية، ولم يحدد الكاتب بلداً معيناً في أوروبا لدلالة على التعميم، فأوروبا الصليبية تنتصر للإنسانية جمعاء وهي مصدر

للأعمال الخيرية، وفي هذا دلالة على تفوق الايدولوجيا الاستعمارية من وجهة نظر الأنا المتكلمة في النص.

بالمقابل المكان في الجنوب الجزائري (واحة قمار) الذي ينتمي إليه المجاهدون الذين يتعامل معهم، يحضر المكان متجسدا في المبعى الذي يملكه بطل القصة الذي هو بطل الثورة الجزائرية، مكان يحط من قيمة الثورة وأبطالها الذين ربط أهدافهم بهذا المكان، وما يزيد الطين بلة هو ربط المسجد بالمبعى فهو يلتصق به من الجهة الخلفية، في إشارة إلى أن واجهة للثورة الجزائرية هي الدين الإسلامي والخلفية هي البغاء، فالمسلمون في نظره يأتون الفواحش، بينما يقوم الصليب بالأعمال الإنسانية، وفي هذا مبرر للاستعمار بأنه مصدر الحضارة. يحضر الصراع العقدي بين الأنا والآخر لتبرير تفوق النصرانية والحط من قيمة الإسلام الذي ربط أهدافه بالبغاء والأعمال الدنيئة التي يقوم بها حفيظ مستشهدا بالآيات القرآنية.

2.4.4 المكان العدواني (الشخصيات الثورية العدوانية):

هو مكان فيه حضور ثقيل للموت، وكل الأعمال العنيفة، وفي القصة أماكن متعددة هي أماكن مستحضرة عبر الذاكرة مرتبطة بالألم من وجهة نظر المستشار الألماني، وهذه الأماكن هي: الجزائر العاصمة، البلدية، بوفاريك، لم يذكر تفاصيل هذه المدن، بل قدمها من خلال ما يقع فيها من عمليات فدائية خاصة التي حدثت في دار السينما، والتي تزامنت مع العيد الوطني الفرنسي، إذ جلب قسيس فوجا من طالبات كن سيلقين حنقهن بقنبلة وضعها حفيظ تحت كرسي، لكنه تراجع وخرج بالقنبلة وألقاها في قنوات الصرف، لحقته الشرطة الفرنسية وأطلقت عليه وابلا من الرصاص مزق ساقيه، «كان هناك طابور طويل أمام شباك التذاكر يتكون من الرجال والنساء والضباط الحازمين، كانوا كلهم قد تزينوا الألبسة الجميلة في

يوم العطلة، كان هناك أيضا قسم مدرسي ينتظر يتكون من أربعين فتاة بمرافقة أحد الرهبان لم يكن بلغن الثانية عشرة بعد، ساعة ستمزقن وتتناثر أشلاؤهن قطعاً، لا بد أن يموت أطفال أبرياء لأنهم ينتمون إلى جيش السادة المضطهدين.²⁶

نلاحظ روح التعالي والفخر عندما يتحدث عن الشخصيات التي ترتاد السينما فهم ناس محترمون، ضباط حازمون، رجال نساء يلبسون ألبسه جميلة. على النقيض مما وصف به الرجال والنساء في المبعي، ويحرص الراوي على استعطاف المتلقي لأنهم مسالمون، وذكر الراهب مع الأطفال فيه إحياء ورمزية تدل على الشفقة والبراءة وهنا تنعكس الرؤيا الأيديولوجية فيصبح الجلال ضحية والضحية جلاداً.

3.4.4 فضاء الطريق:

لهذا الفضاء أهمية كبيرة في العمل القصصي، فهو مكان انتقال ومرور نموذجي فيه تلقي الشخصيات، وتعد اتفاقات، «زمان الطريق المرتبط بزمان اللقاء فذو حجم أوسع، إنما كثافة تقييمية أقل قليلاً. اللقاءات في الرواية تحدث عادة في "الطريق"، فهو أفضل مكان للقاءات المصادفة. في الطريق ... تتقاطع في نقطة زمنية ومكانية واحدة، الدروب الزمانية والمكانية لمختلف ألوان الناس.²⁷ فالطريق كفضاء مفتوح تكمن أهميته في اللقاء، وفي فضاء المحتل نجد الطريق يرتبط بأحداث هامة نجدها في القصة، هذه الأحداث ترتبط بالأعمال الفدائية لحفيظ وتمثل الصراع بين فئتين مستعمرة ومستعمرة.

الطريق الممتد في القصة هو مكان مستحضر عبر الذاكرة يندرج ضمن المكان العدائي؛ إذ يرتبط بالعمليات الفدائية التي يقوم بها حفيظ الذي يقطع آذان الخونة الذين يدخلون السجائر الفرنسية بعد مقاطعتها. لخضر سائق شاحنة يقطع الطريق من العاصمة إلى تمنراست مروراً بمحطة البنزين ببوسعادة، يقطع هذا الطريق ذهاباً وإياباً أربع مرات في شهر، وهي طريق ممتدة عبر الفضاء الصحراوي،

والى جانب كونها عدائية فهي موحشة خطيرة، طريق مفتوحة وفيها يتعرض لخضر لقطع أذنه بالسكين من طرف حفيظ، لأنه دخن السجائر الفرنسية المقاطعة من طرف المجاهدين، يقول حفيظ: «أخرجت من جيب قميصي الخنجر ووضعت في عنقه وطلبت منه أن يتوقف... أوقف الشاحنة كان له ثلاثة عشرة طفلا عشيرة كاملة من الجياح، ألغيت ضميري وفكرت في عاري وفي نجمة ثم ضربت ضربتي».²⁸

استطاع الكاتب أن يخضع المكان للشخصية لكن لا نحس أنه تابع سلبي لأنه يأخذ دورا مهما في ذهن الشخصية؛ «فإسقاط الحالة الفكرية أو النفسية للأبطال على المحيط الذي يوجدون فيه، يجعل للمكان دلالة تفوق دور المؤلف كديكور أو وسط يؤثر الأحداث، إنه يتحول من هذه الحالة إلى محاور حقيقي ويقتحم عالم السرد محررا نفسه هكذا من أغلال الوصف».²⁹

وهذا ما يلاحظ على الأمكنة عموما في هذه القصة؛ إذ يتحول إلى محاور رئيسي يطفح بالدلالات والرموز. فهذه الطريق الصحراوية المفتوحة الممتدة تحيلنا على دلالات البطولة المزيفة لحفيظ من وجهة نظر الأنا الاستعماري المتكلم في السرد.

5. الأماكن الحاضرة:

1.5 الصحراء: هي الواقع الذي يتمناه ورد في صورة الحاضر وليس الماضي، ذكر في السابق مدينة بوسعادة و تمنراست وتم تركيز هنا على الصحراء الشاسعة، في أبعادها تكمن قيم الطبيعة وسحرها، «فهي فضاء بكتبان وفضاء بواحات، وفضاء بسماء وأفق منطبقين، فضاء بألوان قوس قزح، فضاء بجفاف ومطر وخيول وجمال».³⁰ هذه الصحراء الشاسعة التي قضى فيها الراوي وأصدقائه أياما معدودات، قدم عنها انطبعا جيدا ينم عن الإعجاب، يقول: «كانت السيارة ترتج بنا عبر الشط الذي يطلق عليه الجزائريون اسم العرق، وكانت بحيرات الملح تلمع حولنا وكان العالم ينعكس أمامنا فوق برك لا حد لها، كانت تنفلت أمامنا، كان

النهار غير عادي فقد كانت تكتنفه شفافية خطيرة كالحلم في غمرة الحمى، كريح صباحية تهب من الجبال».³¹

يقدم الكاتب وصفا شاعريا لهذا المكان الذي يبدو بأنه متفاعل معه منفعل به، يبدو إعجاب الكاتب بالصحراء كطبيعة خلابة لا يمل وصفها، ولا يبدي تذمرا من قساوتها، حتى عندما تعرضوا للفحات شمسها الصيفية حين تعطلت السيارة جراء الكثبان الرملية، ذكر امتعاض زميليه بينما بقي هو هادئا يقول: «كان احمد قد جلس إلى جانب مصطفى وراح يلعنني... كان مصطفى يرتج غضبا، فتح غطاء المحرك بقوة وراح يدق ويفك، ويسب وينطق بكلمات فاحشة».³²

2.5. واحة قمار: ركز الكاتب على جانبين هما؛ الجانب الأيديولوجي والجانب الطبيعي الثقافي؛ فالجانب الأول يختزله في مكانين وهما المبعى والمسجد اللذين سبق الحديث عنهما، أما قمار كطبيعة وثقافة فقد أبدى إعجابا منقطع النظير بها، وقدم صورة بانورامية لهذه المدينة مساء رمضان والحر الشديد والكثبان الرملية وغابات النخيل، والناس نيام في بساتينهم تحت ظلال النخيل.

كما وصف السوق الأسبوعية في الوادي، فهو سوق مفتوح مشرع على جميع الثقافات الصحراوية، يمثل عمق الصحراء الجزائرية يقصده الناس من كل الجهات، يحضرون أنواع الحيوانات والتمور والخضر والفواكه الموسمية، يقصدها كذلك الفلاحون والجمّالون وأصحاب الحرف التقليدية، والراقصات والمذاحون والقصاصون والبهاليل، وتحضر معهم العادات والتقاليد. ويبدو من خلال هذه الانطباعات إعجاب الكاتب الكبير بالمكان، ويبرز بشكل غير مباشر عداءه للشعب الجزائري وثورته. وبالمقابل لم يحب في هذه البلاد سوى صحرائها وطبيعتها الجميلة.

الخاتمة:

من خلال دراستنا لموضوعتي المكان والبطل في قصة "البطل"، نخلص إلى ما يلي:

- وردت أحداث القصة ضمن زمنين؛ حاضر ومستحضر، ربط الكاتب الزمن الحاضر بالفضاء الصحراوي المعجب به، وربط الثورة الجزائرية بأبطالها بالزمن المستحضر عبر الذاكرة، فهي ماض لا يعترف به. ليدل على فشل الثورة حاضرا اجتماعيا ودينيا، وتقوّ الاستعمار. وكان التشفي هو غرضه من العودة للمكان.
- تجسد القصة النظرة الكولونيالية المتعالية العدوانية ضد الإسلام والثورة الجزائرية.
- تطفح القصة بالدلالات والرموز التي تدين الجزائر المستقلة وانفصالها عن فرنسا.
- تبرز الصحراء مكانا جميلا حالما، أفسده سكانه بثورتهم وانفصالهم عن فرنسا.
- تبقى نظرة الأدباء الغربيين خاصة الألمان تتسم بالاعتدال والتسامح حيناً، وعدائية تصدر حيناً آخر عن رؤية صليبية.

الهوامش:

- 1- مولاي بالحميسي، موقف المؤرخين الفرنسيين من الجزائر في العهد العثماني، مجلة الدراسات التاريخية. جامعة الجزائر 2، مج3، ع2، ص102.
- 2- جمال الدين بن منظور الإفريقي، لسان العرب، المؤسسة المصرية العامة للنشر، بولاق، القاهرة، د.ط، د.ت، ج13، ص59.
- 3- كارم محمود عزيز، البطل الشعبي، مكتبة النافذة، القاهرة، 2006، ج1، ص33.
- 4- المصطفى مويقن، بنية المتخيل في نص ألف ليلة وليلة، دار الحوار، اللاذقية، سوريا، ط1، 2005، ص250.
- 5- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة، ناشرون، لبنان، ص36.
- 6- بطرس حلاق وآخرون، شعرة المكان في الأدب العربي الحديث، تر: عماد عبد اللطيف ونهى أبو سديرة، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2014، ص14.
- 7- المرجع نفسه، ص14.
- 8- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي (الفضاء، الزمن، الشخصية)، المركز الثقافي العربي، بيروت، د.ت، ص31.

- 9- ميخائيل باخنين، أشكال الزمان والمكان في الرواية، تر: يوسف حلاق، وزارة الثقافة، دمشق، ط1، 1990، ص6.
- 10- حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل والهوية في الرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، لبنان، ط1، 2000، ص65.
- 11- بغداد عبد الرحمن، الجزائر في أدبيات الرحالة الفرنسي ألفونس دودي، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، العراق، ع25، شتاء 2021، ص143.
- 12- أبو العيد دودو، الرحالة الألمان والجزائر، مجلة دراسات في العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2، مج1، ع1، ص278.
- 13- ينظر: بغداد عبد الرحمن، الجزائر في أدبيات الرحالة الفرنسي، ص144.
- 14- أبو العيد دودو، الرحالة الألمان الجزائر، ص279.
- 15- ينظر: عبد القادر بو معزة، بسكرة في عيون الرحالة الغربيين، بن زيد للطباعة والنشر، بسكرة، ط1، 2016، ج1، ص21.
- 16- جيل لوكليرك، من موكادور إلى بسكرة، تر: بوشعيب الساوري، منشورات الجمل، بيروت، ط1، 2016، ص119.
- 17- أبو العيد دودو، الرحالة الألمان والجزائر، ص280.
- 18- مجموعة من الكتاب، العازف الأعمى وقصص أخرى، تر: أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2003، ص26.
- 19- مصطلح التقاطبات وظفه يوري لوتمان للوقوف على الثنائيات الضدية القائمة في أصل نشأة الفضاء الروائي ودورها في ارتقاء العلاقات المكانية المعتادة إلى مستوى النموذج المكاني القابل للتحليل وفقا لطبيعة تنظيم واشتغال المادة المكانية في الخطاب الروائي. ينظر: مجموعة من الكتاب، الفضاء الروائي، تر: عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، لبنان، 2002، ص72. يوري لوتمان، سيمياء الكون، تر: عبد المجيد نوسي، المركز الثقافي العربي، ط1، 2011، ص131.
- 20- ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، تر: فريد انطونيوس، منشورات عويدات، ط3، 1986، ص53.
- 21- مجموعة مؤلفين، العازف الأعمى وقصص أخرى، ص89.
- 22- المصدر نفسه، ص98.

- 23- نفسه. ص89.
- 24- نفسه. ص88.
- 25- غالب هلسا، المكان في الرواية العربية، الرواية العربية واقع وآفاق، دار ابن رشد للطباعة والنشر، القاهرة، ط1، 1981، ص211.
- 26- مجموعة مؤلفين، العازف الأعمى وقصص أخرى، ص96.
- 27- ميخائيل باختين، أشكال الزمان والمكان في الرواية، ص221.
- 28- مجموعة مؤلفين، العازف الأعمى وقصص أخرى، ص94.
- 29- حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل، ص65.
- 30- ياسين النصير، الرواية والمكان، الدار العربية للطباعة، بغداد، 1986، ص119.
- 31- حسن نجمي، شعرية الفضاء المتخيل، ص85.
- 32- المرجع نفسه، ص ن.